

رسوم البلاط ومشهدية العادات والتقاليد في رسوم نور الدين الخياشي

***Floors' Paints and the Scene of Customs and
Traditions in the Drawing of Nour El-Deen Alkhayashi***

أ. فوزي بن عبد الكريم تليلي: اختصاص فنون جميلة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة
تونس، تونس.

Mr. Fawzy Ben Abd Al-Kareem Talili: Fine Arts, Faculty of Social
Sciences and Humanities, Tunis University, Tunis.

الملخص

يتمحور موضوع بحثنا حول "فن تصوير البلاط وفن تصوير الحياة اليومية في رسوم نور الدين الخياشي"، والتي اعتمدنا فيه أسلوباً وصفيًا تحليليًا، وقد تم تسليط الضوء على مدونة الرسوم كفصل مهم من فصول ثقافة الصورة في التراث التونسي بالخصوص، ليتم اختيارنا على إحدى المدونات الهامة كنموذج. لما تمتاز به من رصيد مهم من اللوحات الفنية التي لها علاقة بالتاريخ والتراث والذاكرة وقدرتها على إيصال الحس المرئي والمخيالي للمشاهد في ذلك الزمان واليوم. وكشفها لأبعاد مكانية وزمانية، حتى تكون رسوم نور الدين الخياشي بمختلف توجهاتها مجالا واسع القراءات آخذة لتتبع تاريخ، واستحضار تراث، وتذوق للجمال.

ليتسنى لنا تبيان عدة نتائج لعل أهمها:

- تفرد الأسلوب الذي انتهجه الفنان نور الدين الخياشي.
- المروحة بين منحيين؛ فن من أجل البلاط وفن من أجل الفن.
- تأثر الفنان بالفن الأوروبي وبفن والده لإضفاء لمسته الخاصة في تاريخ الفن التونسي.
- مساهمة رسوم الخياشي في التعبير عن حقبة تاريخية وفنية وما تحمله من مخزون تراثي شعبي، وذاكرة جماعية ووطنية.

الكلمات المفتاحية: الموروث الثقافي، رسوم البلاط، رسوم الحياة اليومية، ذاكرة، تاريخ، تراث.

Abstract:

The topic of our research revolves around "The art of depicting court and the art of depicting daily life in the drawings of Nour El-Deen Al-Khayashi," in which we adopted a descriptive and analytical method. The drawing blog was highlighted as an important chapter of image culture in Tunisian heritage in particular, so we chose one of the important blogs as a model. Because of its important wealth of artistic paintings related to history, heritage, and memory, and its ability to convey the visual and imaginative sense of the viewer at that time and

today, and its revelation of spatial and temporal dimensions, so that Nour El-Deen Al-Khayashi's drawings, with their various orientations, become a wide scope for readings, beginning to trace history and evoke heritage. And a taste for beauty. To enable us to demonstrate several results, perhaps the most important of which are: – The uniqueness of the style adopted by the artist Nour El-Din Al-Khayashi. – Variation between two curves; Art for tiles and art for art's sake. – The artist was influenced by European art and his father's art to add his own touch to the history of Tunisian art. – The contribution of Al-Khayashi's drawings to expressing a historical and artistic era and the popular heritage stock it carries, as well as collective and national memory.

Keywords: cultural heritage, court drawings, daily life drawings, memory, history, heritage.

المقدمة

يمثل التراث أحد المكونات الأساسية عند الشعوب نظرا لما يحويه من مادة دسمة تدخل في تركيبة الأمم، إذ أن المادة التراثية "هي مجموع ما تتوارثه أجيال الأمة من نتاج فكري وإنجاز مادي وما يضيف إليه كل جيل من إسهامات، وهو بهذا المعنى نشاط تراكمي متصل ومتواصل وثيق الصلة بالحضارة"، في هذه الحالة يصبح من المتعذر أن ينسلخ هذا الإنسان عن الأولين ويعرض عن تجاربهم لبناء حاضره، كيف ذلك إن كان هذا الإنسان فنانا؟ الفن بالأساس يرتبط أيما ارتباط بالمجتمع الذي ينشأ فيه ويتمخض عنه، لأنه وليد للحظة تفاعلية بين الفنان نفسه وحيثيات المنظومة التي تحوطه (المجتمع بكل تفاصيله)، فلا يمكن للفنان أن ينحرف عن بيئته بل أنه مرتبط بها ارتباطا وثيقا، لذلك نجده يعبر عن نمط المعيشة في مجتمعه واقفا عند عاداته وتقاليده وممارساته اليومية.

التليسي خليفة محمد: النفيس من كنوز القواميس، الدار العربية للكتاب، ٢٠٠٠ ص ١٩٣

والفن التشكيلي التونسي ليس نتاجا عابرا، بل تعبير عن فكر وشعور وعن أسلوب حياة مسايرة للعصر في مختلف تطور مراحلها، حتى تعد مدونة الرسم فصلا مهما من فصول ثقافة الصورة في التراث العربي والتونسي بالخصوص، منذ منتصف القرن التاسع عشر الى نهاية القرن العشرين. ومن أبرز أغراضها تحويل الذاكرة الشعبية والتاريخية من المجال الشفوي والحياتي الى مجال الصورة.^٢

وللخوض في هذه القضايا اخترنا احدى المدونات الهامة كنموذج، وهي تتكون من رصيد هام من اللوحات التي أنجزها الرسام.

وقد ارتأينا أن نتطرق الى هذه المدونة التصويرية من خلال رسوم الفنان نور الدين الخياشي، ومن خلال ما بقي من الرصيد التراثي التونسي في هذا المجال أساسا، وذلك نظرا لعدة دواعي وعوامل دفعتنا لتناول بحثنا، والذي تمحور بين فن البلاط وفن الحياة اليومية في رسوم نور الدين الخياشي وما يمكن ان يساهم في تسجيل الاتجاهات والأساليب التي تشكل المسار الفني، وفي رصد تطور الحركة التشكيلية التونسية، من خلال المعطيات المستمدة من الصورة المرئية أو اللوحة الفنية.

وقع اختياري لهذا الموضوع، نتيجة لأهمية الرسوم التشكيلية في علاقتها بالتاريخ والتراث والذاكرة، وقدرتها على إيصال الحس المرئي والمخيالي للمشاهد في ذلك الزمان واليوم، وكشفها لأبعاد مكانية وزمانية، من منطلق بصرية الصورة في أشكالها، اتجاهها، أصولها، تقنياتها، فضاءها، إيقاعها، فراغها وغيره.

هذه القراءة التاريخية- التراثية والجمالية، تعتمد على أسس وقواعد لدراستها، بالعودة إلى تاريخية الشخصيات المؤثرة للوحة الفنية، وإلى الرمزيات المصاحبة لها كتراث مادي ولا مادي، لتتجمع في تكوين جمالي يعطي للإحساس الجمالي أسلوبا خاصا، مبدعا بتأثيرات رمزية.

ليهدف بحثنا إلى أبعاد تاريخية - تراثية تؤرخ عملية الإبداع من خلال رسوم الفنان نور الدين الخياشي التي تتراوح بين فن البلاط وفن الحياة.

٢. محمد بن حمودة، الريادة الفرنسية في تونس: توطين العمود الأكاديمي، دائرة الثقافة والإعلام الشارقة، ٢٠٠٩.

- فماهي الأسباب التي جعلت الفنان نور الدين الخياشي ينتهج أسلوبا متفردا تميز بمنحيين؛ فن البلاط في علاقة بالصورة الشخصية، وفن الحياة اليومية من أجل الفن ورسوخ ممارسته في الذاكرة التشكيلية؟
 - وإلى أي مدى تأثر الفنان بالفن الأوروبي وبفن والده أيضا لإضفاء لمستته الخاصة في تاريخ الفن التونسي؟
 - وكيف ساهمت ممارسة الفنان نور الدين الخياشي في التعبير عن حقبة تاريخية وفنية وما حملته من مخزون تراثي شعبي، كان بمثابة سجل بصري لذاكرة جماعية وطنية؟
- ومن خلال هذه التساؤلات يتبين لنا أن رسوم الخياشي بمختلف توجهاتها مجال واسع للقراءات المتنوعة، التي تفرز تفاعلا وجدلا بين لوحة الفنان والمشاهد، وتأخذنا لقراءة تاريخ واستحضار تراث وتحليل للجمال وتذوقه.

١. بدايات الفن التشكيلي التونسي

في محاولة للإجابة عن تلك الأسئلة، سنحاول في البداية التركيز على ملامح الفن التشكيلي التونسي، وأهم مجالاته وسماته، حيث عرف الفن التونسي عديد التطورات والتغيرات مرتبطة شديد الارتباط بالأوضاع التي تمر بها البلاد آنذاك، إضافة إلى فترات التلاحق الحضاري التي مرت بها، لينحصر هذا الفن في الصناعات والحرف وفن العمارة والرسم على الزجاج في ذلك الوقت.^٣

ومن أهم الصناعات التقليدية والحرف التونسية، صناعة الشاشية التي كانت موجودة في تونس منذ حكم الحفصيين، كما اشتهرت صناعة الحلي وخاصة معدن الفضة في يد التجار والصناع والصناعات المطرزة بالذهب وبصناعة المنسوجات الحريرية والنقش على الرخام والجبس. إضافة إلى الخزف وتزيين المساجد والأبواب والأسلحة.^٤

لنعرج أيضا على الحركة الفنية خلال فترة البايات، إذ إن بحثنا في مسألة الحركة الفنية التشكيلية في تونس قبل الاستقلال، يتجه بنا إلى عدة اتجاهات، لعل أهمها الريادة التشكيلية إلى الفرنسيين

البياتي سمير مجيد: قراءة بصرية في الفن التشكيلي التونسي، ٢٠١٩، ص ٢٣
 ٣ بن سعد كريمة، الأساليب التشكيلية لدى الرواد (الصالون التونسي: الخصائص والتفرد) مجلة القلعة، مجلة علمية تصدر عن جمعية علوم وتراث بالقلعة الكبرى ٢٠١٨.

الذين زرعوا بذرة الفن التشكيلي فيها، كذلك الى التونسيين الذين اعتنوا بها ووجهوها نحو المحلية والوطنية. فبين المنشئ والمبني ثنائية وصراع حول الأولوية وبادرة أحدهما بنسب الريادة له.^٥

ومن خلال بحوثنا النظرية استنتجنا كون البراعم الاولى للفن التشكيلي في تونس كانت بالرسم على الزجاج الذي نعتة الناقد "عفيف بهنسي" بالأعمال الشعبية الملونة التي "تمثلت منها القصص الشعبية والتاريخية والاسطورية والكتابات المزوقة بالرقش والصور"، والذي جاء عن طريق الاتراك قبل ظهور الرسم المسندي الكولونيالي الاستعماري، كما ذكر ذلك الناقد والمؤرخ "علي اللواتي"^٦ أما أولى الاعمال المسندية فقد تجسدت في فن البورتريهات برسم الوجوه، والتي نشأت داخل البلاطات على يد "أحمد عصمان"، "الهادي الخياشي"، نور الدين الخياشي". حتى تبدأ بوادر التشجيع الثقافي والتشكيلي منذ انبعاث الصالون التونسي الذي مثل النواة الاولى للفن التشكيلي في تونس، وأرجع فضل نشأته الى الفنانين المستعمرين على حد تعبير الناقد "علي اللواتي" وهو الذي فتح للفنان التونسي نافذة على الثقافة الغربية، ومنها تطّلع الى الرسم المسندي والعمل الفني عموماً.

لقد أحيا البعض من الفنانين التشكيليين التونسيين روح التراث في لوحاتهم، التي طغت عليها اللمسة التراثية معبرة عن الانتماء القوي لهذا الفنان وتؤكد صلته المتينة بمجتمعه، ونذكر على سبيل المثال الفنان نور الدين الخياشي كنموذج انخرط في التعامل مع تراثه بصفة آلية، محولاً فضائه التشكيلي الى مجال خصب من التاريخ والتراث والجمال.

• نور الدين الخياشي: نشأته وتكوين

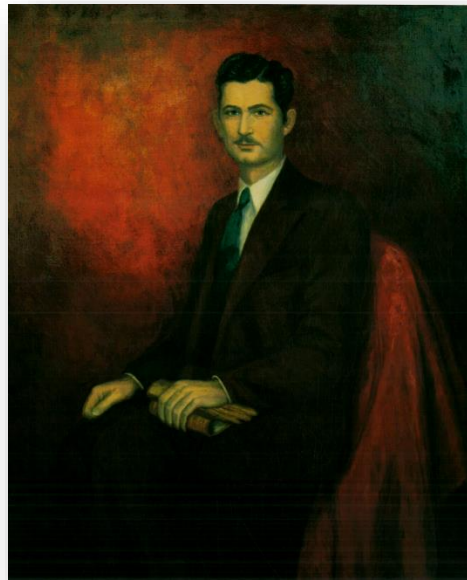
ولد نور الدين الخياشي في تونس العاصمة في ١٤ ديسمبر ١٩١٨ وتوفي في ٤ ماي ١٩٨٧، رسام تونسي وهو نجل الرسام الهادي الخياشي، إذ تلقى تكويناً فنياً متيناً، حيث اتجه إلى روما عام ١٩٣٧ وانخرط في الأكاديمية الإيطالية للفنون الجميلة، ليتعلم على أيدي رسامين كبار وهو ما جعله يتبنى المدرسة الكلاسيكية التي يعتبر أحد روادها في تونس، وقد عاد إلى تونس عام ١٩٥٩ لينجز عدداً من أجمل لوحاته ومن بينها لوحة "تونس الجديدة" ولوحة "الحمام". ومن أهم

٤ سعيد إدوارد، الإستشراق - المعرفة - السلطة - الإنشاء، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية الطبعة الأولى، بيروت ١٩٩١.

بهنسي عفيف: جماليات الفن العربي، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٧٩ ص ٥٣٦.

اللواتي علي: الفن التشكيلي في تونس، إصدارات المنظمة العربية للثقافة والعلوم، ١٩٩٦.

معارضه ذلك الذي انتظم عام ١٩٦٤ وآخر عام ١٩٨٢ بقاعة يحيى، حيث لقيت لوحاته النجاح. ليبدع الخياشي برسم المحاور التقليدية مثل الطبيعة ومشاهد الحياة التقليدية بمدينة تونس وفي عام ١٩٨٣ اتجه الى المملكة العربية السعودية، حيث ترك بصمته بتكوين العديد من الرسامين.^٨



رسم لنور الدين الخياشي
من قبل والده الفنان الهادي الخياشي

رسم زيتي - ١٩٤٧

صم ٩٧.٥/١١٨.٥

وخلال بحثنا في كل ما يتعلق بالفنان اكتشفنا دراسة الخياشي الهامة للفنان "تيتيان"^٩ التي لم يترك شيئا منها، إذ وجد في "تيتيان" نفسا مختلفا، فبنفس الطريقة التي رسمها "تيتيان" رسم الخياشي

^٨ Nourddine khayachi , l homme et l œuvre.: Ed Finzi Mostapha chelbi ٢٠١٦

٨. تيتيان: هو تيتسيانو فيتشيليو رسام إيطالي من البندقية، زعيم مدرسة البندقية في الرسم ورسام البلاط لدى الإمبراطور شارل الخامس أو شارلكان، واسم الشهرة "تيتيان" (1488- 1576) "رسم الاسره المالكه، كذلك صورا للاساطير والمشاهد الدينية، كان "تيتيان" فنان عظيم، واحدث ثوره في عالم الفن، وأنجز خلال مسيرته الفنية الطويلة الكثير من الأعمال العظيمة، التي رسخت مكانته كأحد أبرز الرسامين في تاريخ الفن، وتميز أسلوبه بإبراز الألوان المبهجة، وبرع في تكنيك التدرج اللوني للون الواحد

عدة لوحات في نفس الوقت وشهد على ذلك بقوله " ببطء شديد، وفي بعض الأحيان يسمح بمرور فترات طويلة الى حد ما بين العمليات المتتالية التي شرع فيها والوصول بها الى الكمال " ليأخذ نور الدين الخياشي نفس " تيتيان " الفني في استعمال الضوء والظل والتدرج اللوني، مواجهها بذلك قوة اللون ومتعاملا مع الأزقة المظلمة، والممرات الخالية من الضوء، والمسكن المظلمة والليل المظلم... اينما ذهب، يترك وراءه أثرا من الضوء.¹⁰

١. الخياشي ورسوم بايات تونس

تطورت الصورة الشخصية في مجال التصوير التشكيلي وتعددت مداخل ابداعها، حتي ظهرت من خلال مجموعة من السمات والخصائص الشكلية والتعبيرية، مما جعلها متفردة ومحور اهتمامي واهتمام العديد من الدراسات والبحوث الفلسفية والتشكيلية.

فحاولنا البحث والتعرف في هذا المنحى على بعض سمات وخصائص تلك الصورة الشخصية، التي هي في علاقة وطيدة بدراسة الصورة الشخصية لبايات تونس للفنان نور الدين الخياشي.

إثر بحوثنا الأولية حددنا مواقع تواجد تلك الرسوم التي تراوحت بين القصر السعيد وقصر قرطاج ومخازن الفنون التشكيلية، وبعد حصولنا على ترخيص من معهد التراث، ومن وزارة الثقافة والمحافظة على التراث، إذ تمكنا من زيارات ميدانية بعد عناء الحصول على الوثائق الادارية والاجراءات المعمول بها خاصة فيما يتعلق بزيارة مخازن الفنون التشكيلية، وما تتميز به الرسوم المحفوظة داخلها من قيمة وندره من النواحي التاريخية والعلمية والجمالية.

أما فيما يتعلق بزيارة قصر قرطاج وهي المهمة الأصعب، وذلك لحساسية المكان باعتباره مركزا سياديا يتطلب إجراءات دقيقة، فقد طالت الموافقة على الزيارة الى أكثر من ثلاث سنوات بعد أخذ ورد وبحث وتدقيق، تسنى لنا زيارة رواق البايات في قصر قرطاج.

فقد اتخذ الخياشي من رسوم بايات تونس وسيلة للتعبير عن القوة والهيبة والنفوذ، سواء داخل البلاط او خارجه، بالإضافة إلى استخدامها كأداة لها أهداف وغايات سياسية ووسيلة لإبراز القوة

في أعماله الدينية، وتوزيع الظلال والضوء على أجزاء اللوحة وشخصياتها، واهتم لإبراز دواخل الشخصيات بأسلوب هادئ متميز اثناء عملي البورتريهات الشخصية، وتوفي "تيتيان " عن عمر يناهز ٨٥ عاما.

¹⁰ Mustapha Chelbi... *Et la lumière... Et l'ombre... Avant- propos de Fatma Bey*

Khayachi. Présentation, iconographie et documentation de Tej El Molk khayachi- Ghorbel, Décembre 2000.

والثروة، رغم ما يعيشه المجتمع في بعض الحقبات من تدهور اقتصادي واجتماعي، كذلك فترات من الاستعمار الخارجي، ربما ذلك استغلال بعضهم لإمكانات الفن، خاصة الصورة الشخصية في التأثير والإبهار. حتى إن الفنان نور الدين الخياشي بالغ في تصوير ملامح الشخصيات وفي تصوير الملابس والعمائم والأسلحة المزينة بالمجوهرات في الصورة الشخصية، ومظهرها لفخامتهم.^{١١}

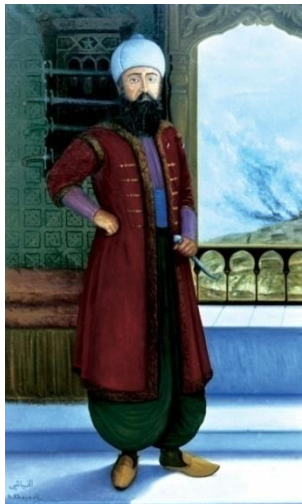
لاتخذ من دراستي قراءة تحليلية للصورة الشخصية، محاولا الاعتماد فيها على عناصر محددة، وهي الأوضاع والحركات الجسدية، تعبيرات الوجوه، الملابس والعمائم المزينة بالجواهر الثمينة، الأسلحة والسيوف المزينة، والاثاث... وقد اخترت ستة صور شخصية لبايات تونس، محاولا تطبيق أسلوب التحليل الفني والتاريخي عليهم.

تأثر الفنان نور الدين الخياشي بالعديد من الأساليب الفنية الأوروبية من حيث ظهور قواعد الضوء والظل، ومراعاة قواعد المنظور، وعلى الرغم من ندرة الأعمال الفنية ذات الجودة العالية في تلك الفترة، إلا أن محاولات الخياشي لإدخال الأساليب والتقنيات الفنية الغربية، ساهمت في إبراز لمستته عند تصوير بايات تونس، لكن أحدث قطيعة نوعا ما مع الخارج ومع فناني تلك الفترة، مما استوجب عليه المراوحة بين فن البلاط وبين فن الحياة اليومية.^{١٢}

^{١١} أيوب عبد الرحمان: الرموز وأبعادها الحضارية في المنسوج التونسي، مجلة الفنون والتقاليد الشعبية،

عدد ١٣، ٢٠٠١ ص ١٦١-١٧٤

^{١٢} اللواتي علي: الرسم في تونس منذ البدايات الى اليوم، كتالوج، مركز الفن الحي لمدينة تونس، ص ٥.



ومن سمات التصوير الشخصي لبايات تونس اهتمام الفنانين بأوضاع حركة الأشكال الأدمية وإيماءاتها، وهو ما اكتسبه الخياشي من تطور في وضعيات الاجسام، لاختار بذلك بعض رسوم البايات والاشتغال عليها بالتحليل التشكيلي والتاريخي وكل الجوانب المرتبطة بالصورة من سمات الوجوه والألبسة والخلفية والأسلحة المصاحبة للبايات،^{١٣} حتى الأوسمة والنياشين التي كانت بارزة بوضوح في صور الخياشي.^{١٤}

٣. استحضار الحياة اليومية في رسوم الخياشي

١.٣. صورة المرأة في رسوم الخياشي:

يتميز مجتمعنا التونسي على اختلاف خاصياته بعادات وتقاليد متناقلة من جيل الى آخر، وهو تعبير عن مدى تناسقه وتواصله من خلال المحافظة على هويته، ارتباطها بكل ما هو ماضٍ واصل وكنز تركه الأجيال يستدعي الاهتمام والدراسة خاصة في مجال بحثنا المرتبط بالتراث التشكيلي المعبر عن جملة من العادات والتقاليد منها الاعراس والافراح وكل ما يرتبط بها من ممارسات احتفالية.^{١٥}

"وما للاحتفالات إلا جزء لا يتجزأ من الموروث الثقافي فهي مجموعة من الممارسات الاجتماعية التي يشترك فيها أفراد المجتمع الواحد في مواسم معينة ورسمية، وغالبا ما ترتبط بهذه العادات ارتباطا وثيقا بمعتقدات عميقة الجذور عند ممارستها وتعتبر في حد ذاتها نوعا فلكوريا مستقلا"^{١٦} إذ يصور الخياشي في رسومه اليومية تحضيرات وتجهيزات معينة احتفاء بمناسبة العرس، وهو مظهر من المظاهر الثقافية وشكلا من الأشكال التعبيرية وتقليد راسخ في الممارسات الاحتفالية التي تتبعها العائلات التونسية.

^{١٣} Revault Jaques, *Palais et demeurs de Tunis* – CNRS, Paris 1967 p51

محمد بيزم الخامس التونسي: صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، ج ١ دار الكتب العلمية، ١٩٩٧ ص ٢٢٥^{١٤}

جلال المخ: صورة المرأة من خلال الرسم التونسي في فترة ما بعد الاستقلال (١٩٥٦-١٩٨٧)، تونس ٢٠٠٨^{١٥}

١٥ الجوهري محمد: علم الفلكلور، دراسات في الأنثروبولوجيا الثقافية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٨، ص ٧٠.



نور الدين الخياشي، صبغة ١٩٧٩

ألوان زيتية على قماش

صم ٩٢/١٠٦

في مشهد يقترب من الواقعية الدقيقة ينشئ الفنان الخياشي موضوعا شعبيا في علاقة بتحضيرات الزواج بالنسبة للعروسة، إذ إن الفنان قام برسم المكان ضمن فضاء داخلي، قاعة شاسعة تتوسطها "وسطية" مفتوحة مقوسة تجلس فيها مجموعة من النساء ويؤثثها من اليمين واليسار مرآة ذات تحف وأخرى مستلزمات الاحتفال، أما في وسط القاعة، فيصور الفنان النسوة، كل في موضع احتفالي، إذ نجد البعض يتقابلوا على "الدبكة" والاهازيج تعلو من أفواههم، وأخريات بالزغاريد والأيادي تسامر رنينها.. أما الموضوع الأهم، ألا وهو "الصبغة" الذي صورها الفنان في أول اللوحة تظهر العروسة جالسة بثيابها التقليدي حاملة المرأة والتي انعكس وجهها عليها، في حين تقوم أحد النسوة بصبغ الشعر وأخريات يحملن مستلزمات الصباغة،^{١٧} مشهد حاول من خلال الفنان نور الدين الخياشي التعبير عن الجو الاحتفالي عند تحضير العروسة مؤثثا فضاء اللوحة بحركة وديناميكية في الأشخاص والألوان من خلال التأليف للعناصر البصرية، ومستفيدا من مؤثرات التضاد اللوني التي تبرز بها في إيطاليا، لإضفاء بصرية وحركة نشطة للعين في فضاء المكان، إذ نلمس تمازجا مدروسا بين التوزيع الهندسي لفضاءات المكان المعماري وبين الفعل اللوني التعبيري الذي ان حاز به الفنان الى الموروث الشعبي من خلال لقائي

Chérif Mohamed- hédi. Pouvoir et société dans la Tunisie de Hussayn ben Ali^{١٧}

(1705- 1740), Université de Tunis, Tunis 1984-1986

الشخصيات، الملابس التقليدية، عادات الغنائي والدربكة والزغاريد، هذا إضافة الى الموضوع العام ألا وهو الصبغة وتحضير العروسة.

فمن خلال هذا العمل اتخذ الخياشي موضوعا شعبيا ضمن تحضيرات العرس، حيث عبر عن الحياة اليومية الشعبية والتي أجادها ابداعا وعبر عنها بشكل فني معبر، مستوحيا من ثقافتى البيئة الشعبية التونسية واسلوب حياة الشعب التونسي في مناسباته وافراحه، محققا بذلك صياغة تشكيلية تراثية ذات قيم بصرية مشهدية.¹⁸

كما تتسم الاعراس الشعبية بمجموعة من التقاليد والعادات الموروثة على غرار لباسي العروسة والعريس، وليلة الحناء، والصبغة والحمام، ليعبر بذلك الفنان نور الدين الخياشي عن موضوع شعبي من خلال تصوير مشهد الحنة للعروس.

نرى أن هذا العمل الذي يمثل مشهدا للعروس تزينها "الحنانة" بالحنة والحرقوس، إذ قام الفنان بتأنيث خلفية اللوحة محملا إياها لأشكال زخرفية نباتية وهندسية من خلال مربعات خزفية محاطة بنافاذة مطلة على فضاء خارجي، ولك انها لوحة ثانية رسمها الخياشي بكل تفاصيلها من مباني والبحر والسماء، تفاصيل لبيئة تونسية ومعمارها وإطلالتها.¹⁹

كما يصور الخياشي الموضوع الرئيسي، إلا وهو الحنة للعروس التي رسمها في أبهى حلة وفي قمة جمالها وشبابها، حاملة في إحدى يديها مرآة، والحنانة تزينها وتنقشها بدقة ورصانة في مشهد يظهر تلقائيته من خلال طريقة الجلوس وتداخل الشخصيات والألوان التي تمثلت في اللباس الذي بدى متناسقا ومتماهيا على كامل مساحة اللوحة.

¹⁸ Gargouri-Sethom (S.), « Des femmes...une culture », dans La femme tunisienne à travers les âges, l'Institut National du Patrimoine, Tunis, 1997, pp.146-159.

¹⁹ Raymond André, *Grandes villes arabes à l'époque ottomane, 1986*, Sindbad, Paris 1985.



نور الدين الخياشي، حنانة (الحرقوس) ١٩٨٦

ألوان زيتية على قماش

١٠٤ / ٩٠ صم

فشخصية العروس التي ترتفع نظراتها إلى الأعلى ويضعها الفنان في موضع اضاءه حيث تبدو الشخصية المحورية والتي يركز النظر مباشرة لها، أما الشخصية الثانية وهي "الحنانة" فيضعها الفنان في منطقة اضاءه أخف، ويكسوها بزي يتماهى مع زي العروسة من الاسفل مرتكزا بذلك على ألوان ترابية. وكان اللوحة منقسمة إلى جزئين جزء سفلي ارضي أثته الفنان بمستلزمات التجميل و" بالقبقاب" وبموضع الجلوس عامة، وجزء علوي ارتكز خاصة على وجهي العروسة بإضاءة واضحة، زادت إطلالة خارجية للنافذة المطلة على البحر وزرقة مع زرقة الرءاء،^{٢٠} وبذلك فان الفنان الخياشي اعتمد على التدرجات اللونية موازنة مع تدرجات الضوء والظلال، فرسم ملامح تحضيرات العرس من خلال الحنه والحرقوس والتي تعتبر من العادات والتقاليد، فاستحضر بذلك تمثيلات الموضوع ودعانا إلى استرجاع تفاصيل المشهد وبهرجته بإظهارات بصرية غنية بالألوان والأشكال، يحتفي من خلالها بتمثيلات الهوية التونسية. كما يصور الفنان نور الدين الخياشي عادة من عادات الزواج، مستحضرا حسب خياله مشهديات حمام النساء، إذ يشحن لوحته بالنساء هنا وهناك وفي وضعيات مختلفة بين الجلوس والحاملة

١٩. الخليلي نزيهة، "اللباس التقليدي، ذاكرة تحاور العالم"، الحياة الثقافية العدد ٢٦١ ماي ٢٠١٥.

٢٠. يحيى علي أحمد، استعارة التراث في الفن، مجلة مجمع اللغة العربية، العدد، ١٢، مارس ٢٠١٨.

لصغيرها التي تغير ملابسها، والذاهبة لببيت الحمام، أما تشكليا فقد ركز الفنان على الشخصيات بإظهارهن في دائرة مضيئة في حين غيب نوعا ما الخلفية بوضعها في تخافت ضوئي وشكلي، حتى إن الناظر أو المتلقي يتجول بالبصر من شخصية لأخرى في وسط اللوحة وكأنه يتتبع أثر الضوء متعدد الألوان والأشكال.^{٢١}

وما يشد انتباهنا أيضا، اعتماد الفنانين على المنظور في رسم الحمام والشخصيات الأمامية والخلفية، حيث أظهر الشخصية أكثر وضوحا في أول اللوحة في حين أظهرها أكثر ضبابية في الخلف.



نور الدين الخياشي، الحمام

ألوان زيتية على قماش

١٣٠/١٦٢ صم

ليراهن بذلك الخياشي بربط الفعل التشكيلي بتمثيلات التراث برسم المرأة في تصورات مختلفة داخل الذاكرة الشعبية، فيصور المرأة البدوية التي كانت تحمل للمشاهد اطمئنانا لتعبيرها عن مفاهيم التراث، والثوب التقليدي الريفي، والحفاظ على التقاليد.^{٢٢}

نلاحظ في بعض نماذج ورسوم الخياشي الجزء الشعبي من التراث، والذي يركز على منظومة كاملة من الرؤى والأشكال والطقوس والمعتقدات والعادات الشعبية المتصلة بالحياة اليومية،

^{٢٢} Nourddine khayachi , l homme et l oeuvre.: Ed Finzi Mostapha chelbi ٢٠١٦

ففي رسمة "البدوية والطفل" استحضار لحياة المرأة والأم البدوية بلباسها المعروف بها وكيفية حملها للطفل على الظهر.

"وقد تنوعت مرحلة رسم البدويات واحتلت حيزا كبيرا من تاريخ الحياة التشكيلية، عندما تواصلت مع صورة المرأة الريفية في مهماتها المتنوعة والتي كانت تحمل إلى الناظر اطمئنانا لتعبيرها عن مفاهيم التراث، والثوب التقليدي الريفي، والطبيعة القروية، ومحبة الأرض والحفاظ على التقاليد"^{٢٣}. إذ إن لمسات الفنان نور الدين الخياشي في تجربته التشكيلية تتجاوز النظرة النمطية للمرأة، فيرسمها امرأة فاعلة ديناميكية رافضة للجمود، حيث العمل اليومي من أجل تأمين لقمة العيش والعمل في البيت وخارجه، فيرسمها الخياشي رمز للوقار والعفة حتى في حفلات الأعراس وعاداتها بثياب محتشمة للمرأة الريفية، التي تشعر المتلقي أن وراء كل لوحة حكاية.



٥. إلهام كلاب: الإبداع الفني - صورة المرأة في الفنون التشكيلية

W W W academia, edu/ 3738807/t We Wtetsdtete.

نور الدين الخياشي، البدوية والطفل "La Bédouine et l'enfant"

ألوان زيتية على قماش

فمن خلال لوحة "البدوية والطفل" رسم الخياشي المرأة حاملة الطفلة منفردة وقد تميزت بخلفية داكنة، محدودة الألوان، مع جعل وجه المرأة مصدر الإضاءة التي تبدد عتمة الخلفية الداكنة، تغمر كل من حولها بعطفها وحنانها، لتكون رمزية المرأة هنا، اختزال للعطاء وسير دون تعب وقدرة على التحمل مهما ثقل الحمل، والصبر ضياء الوجوه وتبديد لعتمة الكل.^{٢٤}

لقد أخذت هذه اللوحة ذاكرة طفولتي التي عايشتها مع أمي، صورة عبرت عن سنين نشأتي الأولى، ومدى تحملها لساعات على ظهرها دون كلل أو ملل، بتلك "الملية" المعبرة عن موروث تقليدي، وهي عبارة عن لحاف بألوان متعددة ترتديه المرأة خاصة في مناطق الشمال الغربي والوسط والجنوب بالتحديد في الأرياف، وذلك الحلي كالريحانة وحلقاتها الذهبية المسطحة، والخمسة و"السخاب" وحلقاته الذهبية والفضية والعنب والخلخال والخلال.

والذي يعود كثيرا من رموزه إلى العهد البونيقي، ليمثّل إثراؤه إثر تعاقب عدة شعوب مثل الرومانيين والبيزنطيين والعرب والأتراك والأندلسيين.^{٢٥}

ولا يمكننا المرور دون التوقف عن وشام الوجه المميزة للمرأة التونسية آنذاك والذي بينه الخياشي أيضا في رسم المرأة البدوية، "الوشم معزز ومكمل لجمال المرأة مبرزا إياها في صورة شيقة وكاشف عن مواطن الذهول والسحر"^{٢٦}. والوشم لوانان: لون أخضر ويرسم به على جسد المرأة السمراء، ووشم أزرق للمرأة البيضاء مأخوذ من زهرة "النيلة" توارثه الأمازيغ وله عدة رموز ودلائل وأشهرها؛ علامة الجمع وهو رمز تانيت إله الخصوبة، ورمز الزيتونة الذي يعكس القوة والاستقرار

جلال المخ: صورة المرأة من خلال الرسم التونسي في فترة ما بعد الاستقلال (١٩٥٦-١٩٨٧)، تونس

٢٠٠٨^{٢٤}

٢٤. الشريف محمد الهادي، تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ الى الاستقلال، تعريب،

محمد الشاوش، محمد عجيبة، دار سراس للنشر، تونس ط١، ١٩٩٣. ص ١٦٥

٢٥. الرميلى نهال: الوشم قديما، وشم في القلب أولا قبل أن يرتسم على الجسد، مجلة الخبير،

٢٠١٩/١١/٢٤

والسلام، ورمز الشمس الذي يفسر النور والضوء والأمل، والمطرقة والتي تعني القوة والخلق والصلابة، إضافة إلى العديد من الرموز كالعقرب والحلزون والفاس والأفعى، وبهذا يكون الوشم مرآة الروح عبر التاريخ من رموز وقصص عاشت مع قدماء الأمازيغ.

لقد شكلت المرأة في رسوم الخياشي تيمة أساسية في العديد من لوحاته التشكيلية، وكان لها حضور لدى مخيلة الفنان من خلال العديد من اللمسات الجمالية تجاوز ما تراه العين إلى إبراز ما تحسه إزاء مكامن الشخصيات. فتنزل تلك اللوحات من برج المرأة المتشبهة بعاداتها وتقاليدها الحياتية إلى بساطة المرأة الريفية حتى وإن أوجت ملامحها للبعض بالفقر والأمية، ففي "بائعة العليق" استخدم الفنان اللون الاسود واللون البني وتدرجاته في اظهار بشرة المرأة مع قوة الضوء إلى تماهي هذا اللون مع الأرضية والخلفية ومع القفة المطرزة بأوراق النخيل الذي اشتهرت به مدينة نفزة من الجنوب التونسي.

من جانب آخر في لوحة "معلمة المألوف" يرسم الخياشي امرأة تحمل كمنجة وهي في وضع الجلوس، والملفت للانتباه هو كيفية رسم الفنان والتقنية التي اعتمدها مقارنة بالخلفية إذا اعتمد الخياشي في رسم " معلمة المألوف"^{٢٧} بتقنية " اللطخة "Tachisme"^{٢٨} وهو عبارة عن تسريع

٧ المؤلف التونسي: المألوف مصطلح تنعت به الموسيقى الكلاسيكية بالمغرب العربي بقسميه الديني والديني المتصل بمذاهب الطرق الصوفية.

ويمكن اعتبار المؤلف التونسي خلاصة للموروث الحضاري الخاص بالمنطقة التي كانت تسمى إفريقية ولإضافات والروافد الأندلسية والمشرقية ويحتل مكان الصدارة في التقاليد الموسيقية التونسية. بل تعد أصدق تعبير عن أصالة هذه التقاليد.

ويشمل المؤلف سائر أنواع الغناء التقليدي والمتن كالמושح، وهو نمط شعري في أوزان وقوالب محددة بالنسبة للقوالب وبحور العروض التي ضيبتها الخليل بن أحمد الفراهيدي في القرن الثامن ميلادي.

وتعتبر النوبة أهم قالب في الموسيقى التقليدية لأقطار المغرب العربي بحيث تقول "جاتك نوبتك" لمن جاء دوره في الغناء. من منتدى سماعي: لإحياء التراث الموسيقي، والحفاظ على موروث الطرب العربي الأصيل.

Tachisme : Technique de peinture figurative constant a peindre^{٢٨}
 par petits dépôts au touches de couleur forts avec le pinceau.
 B arlet. Le jay: Art de demain 1997, p118

لوني او التلطيح الذي ظهر في نهاية الأربعينيات وبداية الخمسينيات من القرن الماضي في فرنسا.

وبالتالي فإن الفنان نور الدين الخياشي كان له اطلاق قوي بما يدور في العالم من حركات فنية وأساليب تقنية في الفن التشكيلي، فرسمه لمرأة المألوف دليل على اعتماده على هذه التقنية التي تعتبر حديثة آنذاك، إذ يعتمد على التلطيح اللوني^{٢٩} في رسم اللباس بتداخل اللطخات بالأبيض والاسود والبنّي ودرجاته الضوئية...

وما جعل تلك اللطخات اللونية في موضع البروز هو ظهور الخلفية ذات الألوان المسطحة تتميز بضبابية في التشكيلي وتماهي الألوان فيما بينها مما جعلها لا حدود لها ولا تقاطعات فيها. إذ نرى أن الخياشي يبحث في هذا الرسم عن حسية لونية وتجربة مختلفة بتعامل بين اللون والحركة، ساعيا إلى تحقيق توازن بين العفوية والجمال في صميم تجربته التصويرية.

٢.٣. العادات والتقاليد في رسوم الخياشي:

يعتبر الفنان نور الدين الخياشي من خلال ممارسته الفنية همزة وصل بين تراث تونس الفني والتاريخي في حقبة من الحقبات، لقد استطاع بفنه الاستخلاص من مقومات التراث الشعبي وجذوره، والذي ميز أسلوبه الخاص في العديد من أعماله التي نبعت من الجذور التراثية الشعبية التونسية، لعل أهمها؛ تحضيرات العرس، طبال الباشا، الخزاف، الدرويش، بوسعدية، الحنة، وغيرها، أعمال عكست أثر الأبعاد الثقافية للموروثات الشعبية ومدى التأثير بتلك الثقافة.

• المعتقدات والممارسات الشعبية:

تنوعت المعتقدات والممارسات الشعبية التونسية فتوزعت جغرافيا وتاريخيا، فكان لها حضور في المخيلة الإنسانية وفي الواقع المعاش على حد سواء، فحسب F.Boas: " كل ثقافة تعد ظاهرة فريدة وخاصة"^{٣٠} فتجتمع الحكايا والأساطير، وخرافات وطقوس مع تلك الممارسات وتصبح موروثة ثقافيا يقبع في اليوميّات والمناسبات.

٩ التجريد الغنائي، الفن اللاشكلي:

بعد الحرب العالمية الثانية تبين لعديد من الفنانين الاوروبيين أنه ما عاد من الممكن تمثيل الواقع بطريقة واضحة فترجموا مشاعرهم وإنطباعاتهم وتعبيريتهم "expressivité" في رسوم تجريدية تنجز غالبا في لحظة بتقنيات حركية متنوعة.

Cf, copet – Rougier; Elizabeth– Anthropologie– in Encyclopédie Universalis, p 521^{٣٠}

ومن بين العادات والممارسات الشعبية، الدرويش والدقاز، كذلك البوسعدية وطبال الباشا و"الكتاب" وغيرها من الممارسات،³¹ إذ إن الفنان الخياشي ساهم في نقلها واستحضارها بفنه وجعلها صورة حاضرة في مخيلة الإنسان رغم مسارعة الزمن الذي أصبح ينذر باندثار العديد من تلك المعتقدات والممارسات، ومن هنا سنتعرض الى بعض الممارسات التي كان لها حضور في ممارسة الخياشي الفنية.

- الدرويش والدقازة:

أثر تتبع المعنى ومحاولة التعريف الدرويش إذ هو: الزاهد أو الفقير أو الصوفي أو المسكين أو الجوال أو المتسول أو الناسك، بهذا تقول اغلب المعاجم في شرح معنى الكلمة في اللغة³².



"Le Derwich" نور الدين الخياشي،

ألوان زيتية على قماش

١٩٦٣

لقد اعتمد نور الدين الخياشي في هذه اللوحة صورة مستحضرة لموضوع الدروشة المتواجدة في بعض الأوساط الاجتماعية في تونس، والتي تجد قبولاً لدى شرائح عريضة من المجتمع وإلى حد اليوم، ليستعرض الخياشي صورة مخيالية للدرويش وممارساته، إذ تجلّى رجلاً كبيراً في السن ذو لحية بيضاء وجبة بالية، ولحاف أخضر على الرأس في شكل عمامة، كما يربط ساقه ربما

³¹ Ben Cheikh, Naceur (2006), Pratique artistique maghrébine et histoire, éd

l'Harmattan, Paris.

١١ مصطلح الدروشة في اللغة: "تدروش الشخص، عمل عمل الدراويش" المعجم العربي الاساسي ص

٤٤٩، الدرويش، المتعبد الزاهد، لفظة فارسية ومعناها "فقير"، المنجد في اللغة والإعلام ص ٢١٤.

لمرض او لوجع لكثرة المشي والتنقل من مكان الى مكان، خافضا عينيه ربما ايضا مناجاة وتبركا في ذات الحين تكثر أصوات البندير او الطبل والزكرة وأدعيه بعض النسوة وأهازيجهم مع الكانون وبخوره المتصاعد، ممارسات ومعتقدات حاول الخياشي تصويرها واستحضار تفاصيلها، تلك الطقوس التي تطلب الاستشفاء او بحاجة لتدخل وسيط يلبي رغبة وحاجة الزائر، اضافة الى دفع الشرور والحسد والعين وغيرها.^{٣٣}

وبذلك ساهم الخياشي في عرض صورة متخيلة للممارسات والاعتقادات المرتبطة بالدرويش والذي يعتبر صورة من الموروث الشعبي في مجتمعنا التونسي.

كما تعرض الفنان الخياشي أيضا الى صورة اخرى من المعتقدات والممارسات الشعبية، إلا وهي الدقازة،^{٣٤} بمعنى الإخبار عما يكون في المستقبل وعلى كل ما هو غامض وغير معروف، تلك المشاعر المتنوعة والتي ينتظرها الإنسان بفارغ الصبر او ما يخفيه المستقبل من قلق وتوتر مما هو قادم، هذه الاحاسيس تكون محل "تدقيز" وتكهن من قبل "الدقازة" حتى يصورها الخياشي وهي "تدقز" وتقرأ الكف، في منزل أحد النساء وبحضور زوجها.

فالدقازة تجوب الأحياء والزقاق مناديه لمن يرغب في معرفة المستقبل، ومن هناك حاول الخياشي رسم حياة المجتمع التونسي من خلال تراثه ومعتقداته وممارساته التي تعتبر جزءا لا يتجزأ من حياته اليومية والدرويش والدقازة هي صورة من تلك الحياة.

٣٢. الجزاري عباس، في الإبداع الشعبي، الرباط، مطبعة المعارف الحديثة ط٢، ١٩٨٨.

٣٣. عبد المنعم الجميحي، موسوعة الثقافة التاريخية والحضارية، دار الفكر العربي، القاهرة ٢٠٠٨.



نور الدين الخياشي "Le Daggaz"

١٩٦٦، ألوان زيتية على قماش

٦٥/٦٠ صم

• طبال الباشا:

إن اهتمام البايات بالموسيقى والأنماط المحلية، قابلة اهتمام أكثر بالطواقم الموسيقية بالعسكر النظامي، وبالتشكيلات العسكرية وفرقة الباي ومهامها الدورية والاستثنائية، والتي تشكلت في القرن ١٩ والتي استمرت إلى حين نشأت الجيش الوطني.^{٣٥}

"وطبال الباشا" هي فرقة موسيقية عسكرية، يقتصر ظهورها على بعض الأعياد الدينية والمناسبات النادرة، وقد صارت عبارة عن جزء من الموروث التقليدي، ومن الآلات الموسيقية المستعملة انا داك والتي جمعت بين الأصول العثمانية والمحلية ومنها " الطبل الكبير " و " الزكرة " و " النقاريات " و " النفير " و " الصنج " و " تشوغان " ^{٣٦}، إذ يقول " سلفادور دانيال " Salvador Daniel عن زيارته

التميمي عبد الجليل: الجيش التونسي في عهد محمد الصادق باي، ٢٠٠٧ ص ١١٥^{٣٥}

^{٣٥} عبد الحميد مشعل، ذاكرة التاريخ وأدب الفنون وموسيقىات الشعوب، ديوان المطبوعات الجامعية، ٢٠٠٨.

³⁶ Salvadore- Daniel, Francisco, Musique et instruments de musique du Maghreb, Paris la boîte à document, 1986. Pp47-48

لقصر الباى بالمرسى ومشاهدته للفرقة الموسيقية العسكرية: "لقد سمعت الجوقة العسكرية للباى بقصره في المرسى، أن تشتمل على حوالي ثلاثين آلة نحاسية مصنوعة في أوروبا، من بين هذه الآلات، آلة "بيستون"، "كور"، "طرمبيت"، "طرمبون"، بينما يضبط الإيقاع بواسطة "طبل كبير" و"طبلين صغيرين" واعتبر أن آلات الإيقاع هي التي أضفت روح الموسيقى العسكرية والحماس في الفرقة"³⁷. وقد تطورت الفرق الموسيقية العسكرية حتى فترة إنشاء المشير "أحمد باي" المدرسة الحربية بباردو سنة ١٨٤٠.

إن حضور الموسيقى العسكرية في الاحتفالات الوطنية (طبال الباشا) كذلك المناسبات الدينية والاعياد أصبح من الموروث والعادات انا ذاك ولها طابعها ورونقها عند الأهالي، إذ يعلمنا " أبل كلاران دولاريف" Abel clarin de la Rive " بأنه سنة ١٨٥٦ يوجد في باردو قصرين للباى ، واحد منهما مخصص للاحتفالات الدينية"³⁸.

"J'ai entendu la musique de bey de Tunis, dans la résidence princière de la Marsa, cette musique composer D'une trentaine D'instrument de cuivre fabriqués en Europe, Tel que piston, cors, trompettes, trombones, ophicléides, Enfin tout ce qui compose une fanfare Militaire (...) À Tunis c'est le role de la grosse caisse et les deux tambours qui complète le corps de la musique militaire".

³⁸ De la Rive, Abel clarin, Histoire générale de la Tunisie, depuis l'an 1590 avant Jésus- christ Jusqu'en 1883, Tunis,E, Demofly, 1883. P361.
" en 1856- le Bardo renferme deux châteaux dant l'un est effectue aux fêtes religieuses"



نور الدين الخياشي، "Tabbal El Bacha I"

١٩٧٨، ألوان زيتية على قماش

صم ٩٥/١٢٧

ليبرهن بذلك هذا الرسم والذي يبين فيه مشهدية "طبال الباشا"، في ساحة القصر حيث ظهر في خلفية اللوحة مع الحراس والفرقة العسكرية، في حين تجمع العديد من النسوة والأطفال لمشاهدة العرض الموسيقي.

فالخياشي أراد أن يصل ويعبر عن عمق تونس الذي تجلّى في المهرجانات والاحتفالات التقليدية التونسية، متشبّثاً بهويته الثقافية وانتمائه الاجتماعي.

• بوسعدية:

تعتبر شخصية البوسعدية^{٣٩} من موروثنا الشعبي، ارتسمت صورته في مخيلنا على شاكلة ذلك الرجل المخيف الذي يجوب أنحاء المدن، كان يتميز بملابسه المزركشة التي تكسوها قطع المرايا

٣٨. تشير الروايات الشعبية المتداولة قديماً بأن هذا الشخص هو راقص من السود على الطريقة "السطمبالية" حيث روي عنه أنه وقع اختطاف ابنته سعيده من طرف تجار العبيد، فقرّر التنكر للبحث عنها حيث قام بتغطية وجهه بقناع، كما يروي البعض الآخر أنه كان ملك مدينه مالي، حيث تم خلعه من منصبه، فأخذ يجوب المدن بعد فقدانه لمكانته ونفوده. ومنذ تلك اللحظة أصبح من أهم الشخصيات التي تتكون منها موسيقى "السطمبالي" ونشير في هذا السياق إلى أن هذه الشخصية "بو سعدية" تصنف ضمن التراث والفلكلور التونسي.

والعظام، إضافة الى ذيول الأرناب والشعالب والذئاب وجلود الماعز والخرفان المرصعة بالأصداف، مخفيا وجهه بقناع ملون واضعا فوق رأسه جمجمة طير كبير مع قرن غزال. هذه الشخصية التي لم نكن نعرف حكايته التي تختزل معاناة الزوج في أفريقيا، حتى أصبح البوسعدية، من أهم الشخصيات المكونة لموسيقى السطمبالي، والتي هي الاخرى لا يعرف الناس عنها الكثير غير بعض الإيقاعات التي تصدرها الشقاشق من صفائح معدنية.



نور الدين الخياشي "Boussaadiya"

ألوان زيتية على قماش

١٣٠/٨٠صم

كما يتميز البوسعدية^٤ برقصاته وحركاته الغريبة، مما يجعل الأطفال يتجمعون حوله مصفقين على إيقاعاته، كما يسرون خلفه كلما سلك أزقة الحي.

زاهر كمون: أغاني الزوج في تونس أو السطمبالي، صفحة ثقافية ٠٨ ماي ٢٠١٦ zaher

kamoun.com

٣٩. في رواية أخرى البوسعدية اشتقت من سيدي سعد ذلك الولي الصالح، وهو زنجي اصيل شمال شرق نيجيريا، أتى من اسطنبول الى تونس في القرن الثالث عشر عندما بلغت العبودية اوجعها، سيدي سعد والذي ارتبط اسمه أيضا بموسيقى الزوج في تونس، مثلما ارتبطت موسيقى الديوان في الجزائر، يقع ضريحه جنوب العاصمة في سهل مرناق.

هاجر الزحراح: الثقافة الزنجية في تونس: دراسة حالة السطمبالي ١٩٨٩.

لقد نهل نور الدين الخياشي من المعتقدات الشعبية وممارساتها التراثية مما تماهت أعماله بين الهواجس الجمالية والتوثيقية، معتمدا في لوحاته ألوانا مغرقة في الإضاءة، وهي مستمدة من ألوان عاداتنا التقليدية مثل ما هو في لوحه "البوسعدية" والتي فيها استنطق الخياشي تعبيرية اللون القادم من الذاكرة التونسية، فتداخلت الألوان في شخصية البوسعدية ليغطي عليها اللون الترابي مع الزركشات الموظفة في الشخصية، ليجعل الفنان من الخلفية البنفسجية باستعمال خامية اللون مستغلا بإضافة الأبيض مستغلا بذلك تقنية "السكين" في رسمها، وأسلوب " اللطخة" (Tachisme) والذي عرجنا عليه سابقا.^{٤١}

• الكتاب:

تحيلنا "الفلة" إلى ذاكرة الكتاب والزوايا، والتي تتعلق بطريقة العقاب التي كان يمارسها معلم القرآن "المؤدب" والفلة التي ذاقها كل من تكاسل عن أداء واجبه أو سلوك وتصرف غير أخلاقي، تناولها الفنان الخياشي باسترجاع واستدكار مشهدية الضرب بالفلة، إذ يصور أحد الفتيان وهو يتعرض الى الضرب بالفلة، وذلك بتثبيته على ظهره ورفع قدميه حافيتين نحو الأعلى، ليتم تثبيتها وربطها بعصا يمسكها من كل طرف شخص ومن ثمة يجلد "المؤدب" بعصاه الخشبية. ليؤسس بذلك الفنان فضاء اللوحة أو بالأحرى فضاء الكتاب بالتلاميذ الذين يجلسون على الحصيرة ويلبسون الجبة والشاشية، في حين يشير رجل عجوز بيده الى الشيخ "المؤدب" بأن يغفر عنه ويكف عن ضربه، صوره تنقل واقع الكتاب آنذاك بكل تفاصيله، هذا اضافة الى تصوير الفنان الشباك ذو قوسين والمطل على الفضاء الخارجي والذي اثته الخياشي برسم الجامع وبعض المباني، إذ يعتبر الشباك فتحة لدخول الضوء مما يضيف على اللوحة إضاءات لونية في عمق العتمة.^{٤٢}

٤٠. محمود النبوي الشال: "الفنون البدائية والعلاقة بينها وبين الفنون الشعبية"، مجلة الفنون الشعبية،

العدد ٣٥، سبتمبر ١٩٩٢.

٤٢. Nourddine khayachi , l homme et l œuvre. Mostapha chelbi: Ed Finzi ٢٠١٦



الكتاب

رسم مقتطف من كتاب " I homme et I " , Nourddine khayachi

œuvre. Mostapha chelbi : Ed Finzi

ومن خلال ما تقدم يتبين لنا مدى تغلغل هذا التراث في الحياة الشعبية التونسية من معتقدات وممارسات ساهم نور الدين الخياشي في إبراز مشاهدتها مرتكزا في بعض الأحيان على تفاصيلها بنفس استنكاري، استحضر الدرويش والدقازة، طبال الباشا، وشخصية البوسعدية، والضرب بالفلقة... كل هذه الممارسات والمعتقدات التقطها الخياشي بعين الفنان ورسمها ذاكرة المتلقي.^{٤٣}

• الألعاب الشعبية:

تتنوع الألعاب الشعبية وتختلف حسب كل بيئة ومن أشهر هذه الألعاب، الغمضة، الكجة، الخريقة، ولعبة الشارة، وكرة المعقاف، والقفز وغيرها من الألعاب الشعبية الأخرى التي تختلف حسب لاعبيها من الأطفال أو كبار السن أو الإناث، إضافة إلى ارتباط بعضها بالممارسة الرياضية فردية كانت أو جماعية.

ليكون الفنان الخياشي حاضرا برسمه في هذا المجال وكل ماله علاقة بعاداتنا وتقاليدنا وممارستنا الشعبية عموما، إذ يرسم البيئة المحيطة به وكل ما ينتجه العامة من الشعب وفقا لمتطلباتهم

٤٢. يحيى علي أحمد، إستعارة التراث في الفن، مجلة مجمع اللغة العربية، العدد، ١٢، مارس ٢٠١٨.

وظروفهم المعيشية، ففي عمله " Karting de notre enfance " يصور الفنان مجموعة من الأطفال يتسابقون على زلاجات يركبها أحدهم ثم يدفعه شخص آخر يتسارعون راكضين ضاحكين، مما يشد انتباه العامة من الناس كبارا وصغارا على حافة الطريق، باعثا في اللوحة جوا من الحركة والتلقائية رغم تعرضها لعدة عوامل طبيعية حتى يمكننا القول ان الالعب الشعبية جزء من الموروث الشعبي وجانب من جوانب الثقافة الإنسانية، حاملة في طياتها ابداع الانسان الفطري وحسه التلقائي، لتظل مصدر الهام لكثير من الفنانين والمبدعين عبر الأزمان لما فيها من أسرار الحياة اليومية للمجتمع والذي كان نور الدين الخياشي من خلال أعماله الناقلة لإرث مجتمعنا وقيمه، وأداة تعبيرية فنية لها رموزها ومفرداتها المليئة بالجاذبية والإثارة.



- Karting de notre enfance، نور الدين الخياشي

١٩٦٨، ألوان زيتية على قماش

١٠/٨٠ صم

- المهن والحرف الشعبية في بعض رسوم الخياشي:
تحتل المهن الحرفية في بلادنا مكانة مهمة نظرا لجودتها وأصالتها وحرفية صانعيها، مستمدة جمالها من ماض عريق، إذ هي صناعات تعتمد على اليد باستخدام أدوات بسيطة، تتوارث أبا عن جد، كما تتميز بتنوعها وبسمات فنية من منطقة إلى أخرى.

والحرف التقليدية هي موروثة شعبية تحتزن موروثة من الناحية العملية والنظرية، لما تدونه من ذاكرة الناس،^{٤٤} ونور الدين الخياشي هنا دون بعضاً من هذه الحرف برسمه وفنه، ومعايشة في بيئته وعبر تنقلاته في أرجاء البلاد، حيث حطت ريشته على خزافي قلالة في جزيرة جربة، إذ صوره وهو يدير الجرة بواسطة المدور وكأنه يراقصها ويطاوعها حتى تكتمل اناعتها، في حين توضع الجرار هنا وهناك مكدسة وأخرى مرصفة، معتمداً بذلك الفنان على الألوان الترابية عن أصل الطين ولونه، جاعلاً من النافذة مصدر الضوء لإضفاء الظلال والعتمة من جهة والنور والإضاءة من جهة أخرى، وتصوير النافذة يعتمد الخياشي بكثرة بحثاً وإضفاء لثنائية الظل والضوء واللون وتدرجاته.

ومن خلال لوحة خزاف جربة، نلاحظ أن الخياشي له علاقة وطيدة وحب للبيئة المعيشية للجنوب التونسي وبالأخص جزيرة جربة،^{٤٥} يمكن أن يعود ذلك لما تعرف به تلك المنطقة من ثراء ثقافي وفني وما تتميز به من مخزون بصري وتراثي يكون مبعثاً لأعمال فنية ومثيرة إبداعاً، كما هو ملاحظ في لوحة "بائعة نفزة" كذلك "البدوية التي تحمل الطفل"، إضافة إلى رسومه الخاصة بأزياء النسوة، من السفساري، التيجانية، والمرأة الغجرية، والمرأة ذات العصاة.^{٤٦}

٤٣. مسلم صبري، التوظيف مستقبل التراث الشعبي، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة ١٩٨٧.

البقلوطي ناصر، التريكي سمير: تقاليد وحرف من تونس، وزارة السياحة والصناعات التقليدية، مطابع سبناكت، ١٩٩٨^{٤٥}

Mustapha Chelbi...*Et la lumière...Et l'ombre... Avant- propos de*^{٤٦}

Fatma Bey Khayachi. Présentation, iconographie et documentation de
..Tej El Molk khayachi- Ghorbel, Décembre 2000



- La Potiere de Guellala (l'île de Djerba)

نور الدين الخياشي، ١٩٥٤

ألوان زيتية على قماش

٧٢/٦١ صم

خاتمة:

لقد استطاع الخياشي الموائمة في محليته وعالميته، بين تراثه الشعبي البصري والتاريخي المفعم بعادات وتقاليد بيئته، وبين منجزات الحداثة الفنية مع العالم آنذاك. ويمكن القول أيضا أن بدايات القرن في السنوات الأولى من القرن العشرين والتي عاشها الفنان، لا تعود إلى اهتمامات شعبية أو دينية أو غيرها، بل هي شغف الفنان الخالص بفنه، يلتقط اللحظات الجمالية التي تماهت مع وظائفها التعبيرية والذاكراتية التي تراها اليوم من منظور تراثي تاريخي وفني.

كما تحمل رسوم الخياشي ذهنية وخيالا مختزنا يتضح من خلال تأمل العناصر المكونة للصورة، عناصر ذات مدلول راق في التعبير الانساني المختصر في مرئية تتخطى حدود الزمان والمكان معرجين للمسة معاصرة تضع الصورة في عالمها المعاصر من خلال فنانين استحضروا روح الشعبي واليومي كالفنان التونسي "عادل مقديش" والكثير من الفنانين الذين اتخذوا من الشعبي والتراثي دراسة وممارسة، قراءة حديثة مزجت بين التقليد والحداثة بإعادة معالم النظرة التراثية وإظهارها من خلال فكره الذي أطلق العنان واسعا لخياله.

وبالتالي فإن الاستحضار لترسبات الذاكرة يتجاوز مجرد الحفظ والاستظهار إلى استخلاص الخبرة الفنية التي تغذي الملكة الإبداعية وتخصبها، حتى يمكننا النظر إلى الاستلهام على أنه بنية إبداعية تركز إلى الذاكرة الجمعية وينشأ تفاعل الإلهام مع الاستلهام في العملية الإبداعية.

إن الخياشي الفنان الذي يجسد خيال الذاكرة بحرفة يديه وببذخ في التعبير عن الحياة، فكانت اللوحة هي حكاية غير مكتملة وحياة تبني الخلود، إذ بها نرى تحولات وفي نفس الوقت تغير العالم من خلالها، فبقوة الحلم يستحضر المتلقي واقعيات ومتخيلات وبها يهب الحياة خيالا من العادات والتقاليد والتاريخ. إذ يمكن القول إن فنّ الخياشي هو حياة تشكّلت على هيئة أشكال وألوان بالضوء والظلّ وما رسمه لم يكن إلا عالما محلوما به.

المراجع والمصادر:

- البقلوطي ناصر، التريكي سمير: تقاليد وحرف من تونس، وزارة السياحة والصناعات التقليدية، مطابع سنيباكت.
- البياتي سمير مجيد: قراءة بصرية في الفن التشكيلي التونسي، ٢٠١٩.
- التليسي خليفة محمد: النفيس من كنوز القواميس، الدار العربية للكتاب، ٢٠٠٠.
- الجوهري محمد: علم الفلكلور، دراسات في الأنثروبولوجيا الثقافية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٨.
- الرميلى نهال: الوشم قديما، وشم في القلب أولا قبل أن يرسم على الجسد، مجلة الخبير، ٢٠١٩/١١/٢٤.
- التميمي عبد الجليل: الجيش التونسي في عهد محمد الصادق باي، ٢٠٠٧.
- أيوب عبد الرحمان: الرموز وأبعادها الحضارية في المنسوج التونسي، مجلة الفنون والتقاليد الشعبية، عدد ١٣، ٢٠٠١.
- الخليفي نزيهة، "اللباس التقليدي، ذاكرة تحاور العالم"، الحياة الثقافية العدد ٢٦١ ماي ٢٠١٥.
- الشريف محمد الهادي، تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، تعريب، محمد الشاوش، محمد عجيب، دار سراس للنشر، تونس ط١، ١٩٩٣.
- الجراري عباس، في الإبداع الشعبي، الرباط، مطبعة المعارف الحديثة ط٢، ١٩٨٨.
- اللواتي علي: الفن التشكيلي في تونس، إصدارات المنظمة العربية للثقافة والعلوم، ١٩٩٦.

- اللواتي علي: الرسم في تونس منذ البدايات الى اليوم، كتالوج، مركز الفن الحي لمدينة تونس.
- عبد المنعم الجميعي، موسوعة الثقافة التاريخية والحضارية، دار الفكر العربي، القاهرة ٢٠٠٨.
- عبد الحميد مشعل، ذاكرة التاريخ وأدب الفنون وموسيقى الشعوب، ديوان المطبوعات الجامعية، ٢٠٠٨.
- إلهام كلاب: الإبداع الفني - صورة المرأة في الفنون التشكيلية.
- زاهر كمون: أغاني الزنوج في تونس أو السطمبالي، صفحة ثقافية ٠٨ ماي ٢٠١٦.
- هاجر الزحراح: الثقافة الزنجية في تونس: دراسة حالة السطمبالي ١٩٨٩.
- محمد بن حمودة، الريادة الفرنسية في تونس: توطين العمود الأكاديمي، دائرة الثقافة والإعلام الشارقة ٢٠٠٩.
- محمد بيرم الخامس التونسي: صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، ج ١ دار الكتب العلمية، ١٩٩٧.
- محمود النبوي الشال: "الفنون البدائية والعلاقة بينها وبين الفنون الشعبية"، مجلة الفنون الشعبية، العدد ٣٥، سبتمبر ١٩٩٢.
- مسلم صبري، التوظيف مستقبل التراث الشعبي، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة ١٩٨٧.
- بن سعد كريمة، الأساليب التشكيلية لدى الرواد (الصالون التونسي: الخصائص والتفرد)، مجلة القلعة، مجلة علمية تصدر عن جمعية علوم وتراث بالقلعة الكبرى ٢٠١٨.
- سعيد إدوارد، الإستشراق - المعرفة - السلطة - الإنشاء، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية الطبعة الأولى، بيروت ١٩٩١.
- أيوب عبد الرحمان: الرموز وأبعادها الحضارية في المنسوج التونسي، مجلة الفنون والتقاليد الشعبية، عدد ١٣، ٢٠٠١.
- يحيى علي أحمد، إستعارة التراث في الفن، مجلة مجمع اللغة العربية، العدد، ١٢، مارس ٢٠١٨.
- بهنسي عفيف: جماليات الفن العربي، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٧٩ ص ٥٣.
- Mustapha Chelbi... *Et la lumière... Et l'ombre... Avant- propos de Fatma Bey Khayachi*. Présentation , icomographie et

- documentation de Tej El Molk khayachi– Ghorbel,, Décembre 2000.
- Ben Cheikh, Naceur (2006), Pratique artistique maghrébine et histoire, éd l'Harmattan, Paris.
 - Barlet. Le jay : Art de demain 1997.
 - Chérif Mohamed– hédi .*Pouvoir et société dans la Tunisie de Husayn ben Ali (1705– 1740)*, Université de Tunis, Tunis 1984–1986.
 - Gargouri–Sethom (S.), « Des femmes...une culture », dans La femme tunisienne à travers les âges, l'Institut National du Patrimoine, Tunis, 1997
 - Cf, copet – Rougier; Elizabeth– Anthropologie– in Encyclopédie Universalis.
 - Selvadore– Daniel, Francisco, Musique et instruments de musique du Maghreb, Paris la boîte à document, 1986
 - Revault Jaques, *Palais et demeurs de Tunis* – CNRS, Paris 1967.
 - Raymond André, *Grandes villes arabes à l'époque ottomane, 1986*, Sindbad, Paris 1985.
 - De la Rive, Abel clarin, Histoire générale de la Tunisie, depuis l'an 1590 avant Jésus– christ Jusqu'en 1883, Tunis,E, Demofly, 1883.
 - Nourddine khayachi, l'homme et l'œuvre. Mostapha chelbi: Ed Fin –
 - www.academia.edu/3738807/t-We-Wtetsdtete.